خاتمة

إن زمن التأريخ التوراتي كما سبق وذكرنا متقطع بشكل لافقاري إلى أكثر من ثلاث مراحل، أو عصور:

- الأول: عصر الآباء الأوائل (إبراهيم - إسحاق - يعقوب):

حيث يدّعي اليهود أنهم أحفاد النبي الحنيف إبراهيم الذي يعيده المؤرخون إلى القرن التاسع عشر (ويزمن له ١٩٠٠ - ١٨٥٠ قبل الميلاد، والذي هاجر من مدينة أور الواقعة جنوب بلاد الرافدين، شمالا باتجاه حاران، ثم من هناك تغرّب إلى بلاد كنعان، فمصر ثم بلاد كنعان ثانية، حيث مات فيها، وورث عنه قيادة الرحلة ابنه إسحاق، ثم حفيده يعقوب الذي هاجر إلى حاران، ثم عاد إلى بلاد كنعان ثانية، ومن هناك، وبسبب الجفاف، انتقل يعقوب مع أولاده، وبرعاية يوسف إلى مصر، المحطة الأخيرة في رحلة الآباء الأوائل.

- الثاني: عصر موسى:

تدعي التوراة أن أبناء يعقوب الاثني عشر، ومن تحدّر منهم، استوطنوا في منطقة الدلتا في مصر العليا، وبعد قرابة أربع مائة سنة أعاد موسى تاريخ الأسباط إلى الجريان ثانية، حيث استطاع النبي موسى الخروج من عبودية مصر إلى سيناء مع قرابة ثلاثة ملايين إنسان من أتباعه من بني إسرائيل، مع بعض (اللفيف)، في نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وفي سيناء - التي بقي فيها قوم موسى تائهين لمدة أربعين عاما - استقبل النبي موسى الشريعة من الرب يهوه، وينتهي هذا العصر بوصول النبي موسى إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن، وموته هناك، والذي تبعه مباشرة تأريخ دخول القبائل العبرية بقيادة يشوع إلى بلاد كنعان، والسيطرة عليها، وهناك وبعد موت يشوع تفرقت كلمة القبائل العبرية الذين كانوا يُحكمون قبليا من قبل القضاة العبرانيين، أما مدنيا فيحكمون من قبل شعوب المنطقة.

- **الثالث: عصر المملكة المتحدة، وانقسامها، وانتهاؤها:**

يأتي هذا العصر، بعد مرحلة من التمزق العبري بين شعوب بلاد كنعان، حيث استطاع شاول الملك الأول أن يوحد القبائل العبرية، وجاء من بعده داود الذي استطاع أن يشكل حدودا جغرافية للملكة، أما سليمان فقد استطاع أن يوجد اعترافا سياسيا، حضاريا لها، وبعد موت الملك سليمان انقسمت المملكة الموحدة إلى مملكتين: شمالية، هي مملكة السامرة (إسرائيل)، وجنوبية، هي مملكة يهوذا، وقد انتهت مملكة إسرائيل إلى الزوال سنة ٧٢١ قبل الميلاد على يد الآشوريين، أما مملكة يهوذا فانتهت سنة ٥٨٦ قبل الميلاد على يد الكلدانيين، وينتهي التأريخ التوراتي بعودة المسبيين على يد الفرس إلى بلاد كنعان مرة أخرى.

عصر اليهود بين السبي، والشتات:

وهذا العصر، غير توراتي، بل هو عصر تاريخي، ويبتدئ هذا العصر بعد أن تم سبي اليهود من بلاد كنعان في سنة ٥٨٦ قبل الميلاد، إلى بابل ومحيطها، ثم يستمر من خلال عودتهم على يد الفرس في سياق القرن الخامس قبل الميلاد، حيث خضعوا لمراحل سياسية سيادية متداخلة، ما بين الاستقلال الكامل، وما بين الحكم العسكري المباشر من قبل الفرس، ثم اليونان، ثم البطالسة، ثم السلوقيين، ثم الرومان والذين أنهوا هذه المرحلة سنة ٧٠ ميلادي بتشتيت اليهود في كل إنحاء العالم، حيث يبدأ العصر اليهودي الأطول من بين العصور، وهو الذي يمتد ما بين الشتات اليهودي، والعودة الصهيونية إلى بلاد كنعان (فلسطين).

بدأ اليهود بتدوين التوراة في مرحلة السبي البابلي، حيث قام الكهنة بكتابة الماضي اليهودي الذاتي تحت ضغط عدة نزعات نفسية جمعية، أهمها النزعة العنصرية الشوفينية التي تتكامل، وتشكل الوجه الآخر لعقدة النقص التاريخية اليهودية الجمعية، فبينما كان حضورهم يتمسرح في الظل على هامش التاريخ، حاول الكهنة والقادة الذين يمثلون ضمير اليهود الجمعي، أن يقنعوا، وأن يقدموا أنفسهم على أن تاريخهم كان يتموضع في مركز التاريخ الإنساني، بل ومركز الوجود، وبتعبير أخر حاولوا أن يكتبوا تاريخهم كما كانوا يحلمون، أو يتمنون أن يكون ماضيهم التاريخي، وبتعبير آخر كتبوا أحلامهم، وأمانيهم على شكل ذكريات، كما قام الأنبياء بدور نفسي مهم في قيادة المسبيين من خلال تبرير، وإلصاق هزيمتهم التاريخية بالإرادة الإلهية البحتة، وهذه الإرادة هي نفسها (من خلال نبوءاتهم المستقبلية) التي ستقوم أيضا ليس بإرجاعهم إلى يهوذا فحسب، بل وستجعلهم يقودون العالم بأسره تحت قيادة المسيح المنتظر بعد أن يعيدهم إلى الأرض المقدسة، وعلى اليهود في منافيهم أن يتماسكوا، وينتظروا، دون أن يساورهم أدنى شك، قدوم هذا المسيح، الذي سيكون رئيسا أو ملكا أو ممثلا لله على مملكة الأرض.

لقد ذكرت، وأكدت في غير موقع على أن النص التوراتي لا يمكن اعتباره نصا تاريخيا لما يتضمنه من عمه زماني، ومكاني، ومن مبالغات، وبذلك فإن البحث عن تاريخ فلسطين سيكون مظللا حين يأخذ من التوراة مرجعا له، في الوقت الذي يمكن أن تكون مقاربة وتشخيص هذا التاريخ أكثر موضوعية، وأقرب إلى الحقيقة فيما لو اعتمدت في ذلك على النتائج التي يدلي بها البحث الأثري أولا، مع قراءة التاريخ العام للمنطقة ثانيا، مع الاستئناس بالنصوص التوراتية بعد الغوص في المعرفة العميقة للآلية النفسية والعقلية لمحرريها بدرجة ثالثة، ووضع نقاط ارتكاز من كل الحيثيات، يتم من خلالها مقاربة هذا التاريخ.

والمرحلة التوراتية الأكثر أهمية، والأكثر جدلا في التوراة، هي المرحلة الكنعانية، لأنها المرحلة التي يؤمن اليهود بحدوثها في الماضي، والتي تشكل مرجعية أساسية للأيديولوجية الصهيونية، والتي تسعى إلى إحياء الماضي في الحاضر، وتُعَدّ المرحلة الكنعانية هي المرحلة الجغراسياسية في التاريخ التوراتي، والتي تبتدئ بدخول القبائل العبرية إلى بلاد كنعان بنهاية العصر البرونزي، وبداية العصر الحديدي في فلسطين، بقيادة يشوع حيث، حسب ما جاء في المقولة التوراتية، قامت القبائل العبرية بتدمير المدنية الكنعانية، وأبادت الشعب الكنعاني على اختلاف مسمياته بشكل نهائي، ولكن الأبحاث العلمية المطلعة أو المستأنسة بمقولة التوراة طرحت مقولاتها كما يلي:

في نهاية العصر البرونزي الثالث أو الحديث (١٦٠٠ - ١٢٠٠ق.م)، وبداية العصر الحديدي الأول أو المبكر (١٢٠٠ق.م - ١٠٠٠ق.م)، وبعد انتهاء مرحلة من الجفاف الذي كان قد أضعف الحياة في المنطقة، ومع بداية عودة المناخ المطري الذي أعاد التوزيع الديمغرافي الداخلي لبلاد كنعان، بالتشارك مع بعض الحركات الشعوبية، والعسكرية، أهمها الحملة التأديبية التي قام بها مرنفتاح، بعد قدوم شعوب البحر، واستيطان الجماعات البيلستية على السهول الساحلية الجنوبية لبلاد كنعان، كما تزامن أيضا مع حركة استيطان تسللي وتدريجي لجماعات بشرية ذات طابع شبه بدوي لبلاد كنعان، قدمت من الجنوب عبر صحراء النقب ووادي عربة، ومن الشرق عبر نهر الأردن، وقد انتشرت في بلاد كنعان بدءا بالمنطقة الشمالية من الهضاب المركزية، مع امتداد بطيء ومتدرج نحو الجنوب، وأخذت تفرض تغييرات ديمغرافية استيطانية جديدة، وقد اتخذت تلك الجماعات البشرية البدوية من قمم الجبال، ومن المناطق والأراضي المشاع، مكانا لنصب خيامهم، ومن ثم استيطانهم عليها، إضافة إلى استيطانهم على محيط بعض القرى والمدن الكنعانية والعبرية القديمة المتكنعنة، ويُعتقد أن هذه الجماعات البشرية هي القبائل العبرية التي ورد ذكرها في التوراة، والتي لا تحمل أي طابع حضاري أو ثقافي محدد مشترك فيما بينها، بحيث لم يتمكن البحث الأثري من تمييزها عن القرى الكنعانية الوطنية التي كانت متواجدة، وقد استطاعت هذه القبائل أن تتحالف فيما بينها ضد المواطنين وقراهم الزراعية، وأن تشكل كياناً قبلياً عشائرياً بدوياً.

والمنطق التاريخي يفترض نشوب صراع بين الجماعات البدوية من جهة، والزراعية من جهة ثانية، وهو صراع نسقي متكرر في كل زمان ومكان ما بين البدو

الرحل الدخلاء، أو الوافدين - الذين يشكلون قوة قبلية أثنية ليس لها بنية جغراسياسية محددة - وما بين المزارعين الذين يشكلون كياناً جغراسياسياً، وهذا الصراع ينشب غالبا نتيجة اعتداء البدو على الفلاحين من خلال رعي أغنام، ومواشي البدو، على الأراضي الزراعية للفلاحين، أو من خلال قيام القبائل البدوية بغزو القرى الزراعية ونهبها تحت جنح الظلام، مع استغلالها لعنصر المفاجأة أيضا، ثم انتقال هذه القبائل إلى أماكن أخرى، الأمر الذي يحرم القرى من إمكانية الرد على هذه الغزوات، وآخر هذه الصراعات تمت في منطقة حوران جنوب سوريا سنة ٢٠٠٠ للميلاد، حيث نشب صراع نسقي بين العشائر البدوية (لقبائل الشنابلة) المستوطنين في جبل حوران، وبين فلاحي المنطقة، وقد استخدمت فيه بعض الأسلحة النارية الفردية، وراح ضحية هذا الصراع بضع عشرات من القتلى من الطرفين، وتم إحراق وتدمير بعض البيوت البدوية التي كانت مبنية على أطراف المدن، والقرى الحضرية، ولكن وبوجود دولة ونظام سياسي عسكري مركزي تم قمع هذا الصراع في مراحله الأولى، وأعيدت الأمور إلى ما كانت عليه بعد مدة قصيرة من الزمن، ولكن الوضع الإقليمي الدولي في مرحلة البرونز المتأخر والحديدي الأول، كان يفتقد إلى قوى مهيمنة تستطيع أن تشكل شرطي في المنطقة، وهذا ما جعل الصراع يستمر لمدة طويلة، وقد تفكك هذا الصراع إلى مجموعة من الصراعات المحلية كانت تشتعل، وتنتهي ثانية بين الجماعات القبلية (العبرية) والقرى الوطنية (الكنعانية) حسب إمكانية هيمنة قوى محلية (الفلستيين - الفينيقيين - الأموريين - القبائل العربية).

والجدير ذكره أن الباحث فرج الله ديب قد ذكر أن عدم ذكر الكنعانيين من قِبل هوميروس، وحتى هيرودس ٤٧٤ قبل الميلاد، الذي زار منطقة الشرق الأدنى، وتحدث عن شعوبها ومدنها، يعود لا لأن الكنعانيين كانوا قد انتهوا، ودفن اسمهم في التاريخ، دون أن يترك لهم التاريخ شاهدة أو بقية من الشعب يذكّروا باسمهم، بل لأن كلمة كنعاني هي تعبير أو حالة وصفية للمُزارع (الكانع هو المستقر)، أما كلمة عبراني فتشكل حالة وصفية للبدوي الجوال المتنقل (العابر هو البدوي الجوال)، وإن كان هذا التوصيف قد استخدم كاسم في بعض الحالات، كما أن هيرودوس أيضا لم يأت على ذكر اليهود في فلسطين، ومن المفترض أن زيارة هيرودوس للمنطقة كانت تتزامن مع عودة الجماعات اليهودية من السبي البابلي.

أما أصحاب كمال الصليبي، ومن اتبع مذهبه، فهم يعتقدون أن الكنعانيين أصلا لم يكونوا في جنوب سوريا أي في ما يدعى ببلاد كنعان (فلسطين) بل كانوا في الجنوب الغربي من شبه جزيرة العرب.

ويمكن الافتراض أن هذا الصراع البدوي - الحضري في بلاد كنعان في المرحلة الانتقالية ما بين العصر البرونزي الثالث، والحديدي الأول، كان ضعيفا ومحليا وليس له أي قيمة في حسابات الدول، والممالك، والإمبراطوريات المحيطة، ولا سيما القوة المصرية التي كانت تحرص على إبقاء بلاد كنعان تحت هيمنتها، والتي كانت تعاني حالة ضعف وانكماش في تلك المرحلة، ولكن، ومع مرور الزمان، تم تفكيك الصراع إلى عدة صراعات ضعيفة، ما فتئت أن اختفت في النهاية، من خلال اندماج الأقلية البدوية في الأماكن

الزراعية (الكنعانية) ذات الكثافة الديموغرافية العالية، واستيطان، واستقرار بعض القبائل البدوية على الأراضي التي تمتاز بانخفاض الكثافة السكانية.

ويبدو أن القبائل التي حطّت ونصبت خيامها في المنطقة الشمالية من الهضاب المركزية (السامرة، ومحيطها) استطاعت أن تحقق اندماجا (كنعنة)، لا سيما وأن النصوص التاريخية بينت أن جماعات عبرية كانت قد سيطرت، واستوطنت عليها في سياق القرن الخامس عشر قبل الميلاد - أكثر من المنطقة الجنوبية التي غلب عليها الطابع البدوي القبلي.

وبذلك فقد بدأت الجماعات القبلية البدوية تتحول إلى جماعات استيطانية بدائية فقيرة وشبه حضرية (حسب المعطيات الأركيولوجية)، وشيئا فشيئا بدأت عمليات الاندماج (الكنعنة) الاجتماعية والدينية، وقد كَنعت القبائل العبرية - حتى المتزمتة منها - الإله (يهوه)، بعد أن كانت قد تعرفت عليه، وتبنته في منطقة سعير وسيناء، وقامت بتطويره بما يتلاءم مع نمطهما الحياتي الجديد.

وقد بينت الدراسات التاريخية أن عبادة الإله يهوه كانت منتشرة على نطاق ما، في الألف الأول قبل الميلاد من إيبلا شمالا، وحتى سيناء جنوبا، ويعتقد أن موطنه الأصلي - أو انه كان الإله الرئيسي - في منطقة مديان وأدوم ومنها انتشر شمالا، وكانت بلاد كنعان بشكل خاص، والشرق الأدنى بشكل عام في تلك الفترة، تدين بالدين الحنيف الذي كان يدين به إبراهيم، بينما كان العبريون منقسمين بين من يدينون بالديانات الكنعانية، وبين من يدينون باليهوية، حيث اتخذوا من الإله يهوه إلها واحدا خاصا بهم، وهو الدين الذي تمسكت به القبائل التي انتشرت في المنطقة الجنوبية من بلاد كنعان، وحاولت أن يكون إلها، ودينا مركزيا وقاومت كنعنته، ولكنها من المؤكد لم تستطع أن تقاوم كنعنة لسانها، وبالتالي أيضا قلمها.

وبينما كان الانتماء في البداية أثنياً قبلياً لدى القبائل المستوطنة، تحول بعد امتلاك الجماعات البدوية بنية جغرافية، إلى انتماء وطني، وبينما كانت تلك القبائل معزولة نسبيا عن محيطها السياسي والديموغرافي، بدأت بالانخراط والاندماج، بل والانصهار ضمن محيطها الكنعاني، لا سيما بالنسبة لقبائل الضفة الغربية الشمالية (السامرة)، والتي أخذت اللغة والدين الكنعاني، وهذا أدى إلى تشكيل خليط بشري كنعاني - عبري، على عكس القبائل الجنوبية على جبال أورشليم والخليل، والتي كانت تنتشر وتتوزع ضمن محيط كنعاني ضعيف، الأمر الذي ساهم في أن تبقى تلك القبائل البدوية متزمتة في انتمائها الأثني القبلي.

وإذا، استطعنا أن نعتقد أن النص التوراتي في معرض حديثه عن مرحلة الدخول، والاستيطان، والمملكة المتحدة، هو نص أدبي شعري أسطوري لحالة تاريخية حقيقية بسيطة، فيمكن أن نستنتج، أو نفترض أن بعض القبائل العبرية قد تجمعت، أو اتحدت في تنظيم إداري أو سياسي كحالة دفاعية لتحدي المحيط السكاني، ولا سيما تحدي جماعات البيلست التي حطّت على الشريط الساحلي الجنوبي للبحر المتوسط متزامنة مع الاستيطان العبري على الضفة الغربية لنهر الأردن، وقد التفت تلك الجماعات العبرية حول قبيلة يهوذا، والتي ربما استطاعت أن تفرض نفوذها، وسيادتها في بعض الأحيان بقيادة رجال مميزين كان من بينهم داود، ومن ثم ابنه سليمان، على القرى الحضرية المحيطة

الضعيفة، ولكن هذا التشكيل القبلي كان صغيرا وضعيفا وقصيرا إلى درجة أنه لم يترك له أي أثر يشهد عليه، والمنطق البحثي يفترض أن هذا الكيان السياسي لم يكن أكثر من تحالف قبلي لمجموعة من المشيخات، يترأس عليها شيخ الشيوخ، أو قاضي القضاة، كما هو عليه الحال في النظام العشائري القبلي في كل مكان، وزمان، ويبدو أن بعض الشيوخ المميزين (داود وسليمان) قد حققوا بعض السيطرة على القبائل العبرية الشمالية التي كانت قد زاوجت بين النظام القبلي العشائري، والنظام الكنعاني (المدينة - الدولة) الذي كان سائدا في المنطقة.

إن البنية الاقتصادية للضفة الغربية، كما تظهرها البحوث الأثرية، كانت فقيرة، وتعتمد على رعي الماشية، وعلى بعض الأعمال الزراعية للأراضي الضيقة على الجبال القابلة للزراعة، ومثل هكذا بنية اقتصادية لا يمكن لها أن تشكل بنية تحتية ديمغرافية سكانية وعمرانية واقتصادية يمكّنها من بناء جيوش منظمة، وهذا يدحض ما أتى في التوراة في معرض حديثها عن قوة، واتساع مملكة داود، وعن عظمة، وازدهار مملكة سليمان، في الوقت الذي يفترض فيها أن القبائل البدوية العبرية كانت تمر في طور الانتقال ما بين مرحلة البداوة، وبين مرحلة والاستيطان، والتحضر.

وقد أظهرت الأبحاث الأركيولوجية أن تحسن الحالة البيئية العامة، بعد تزايد الكميات المطرية، أدى إلى حراكية اقتصادية محلية في المنطقة في سياق العصر الحديدي الأول، وانتقاله نحو الحديدي الثاني، والذي فيه استطاعت البنية الاقتصادية أن تقدم تبرعاتها أو فائضها لتأسيس بنية عمرانية، وأن تموّل أيضا نظاما سياسيا عسكريا يمكنه أن يثبت تواجده تاريخيا، وهو النظام الذي أتت على ذكره الحوليات الآشورية، باسم مملكة عمري، كما أن الأبحاث الأركيولوجية أكدت على حصول تطور معماري سكني، ودفاعي عسكري، حيث اكتشف العديد من الأبنية الدفاعية والتحصينات حول المدن والقرى، وبالذات في المنطقة الشمالية من الضفة الغربية، التي استطاعت في سياق القرن التاسع قبل الميلاد أن تحيي مملكة إسرائيل الكنعانية - التي كانت قد تشكلت في القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، والتي كان قد أنهى وجودها الفرعون مرنفتاح، وقد عادت تلك المملكة إلى الوجود باسم مملكة السامرة، أو بيت عمري كما جاءت تسميتها في الحوليات الآشورية في القرن التاسع قبل الميلاد، ولكن هذا التحول في المنطقة الشمالية لم يكن قد حصل بالتوازي مع المنطقة الجنوبية (أورشليم ومحيطها)، التي كانت تعاني حالة من الفقر، ولكن، ومع مزيد من التحسن البيئي، استطاعت بعد تأخر قرنيين من الزمان عن التطور الذي حصل في المنطقة الشمالية، أن تشكل كياناً عسكرياً باسم مملكة يهوذا القبلية، والتي انتهت على يد البابليين سنة ٥٨٦ قبل الميلاد، بعد أن كان الآشوريون قد أزالوا مملكة السامرة (إسرائيل) الشمالية سنة ٧٢١ قبل الميلاد.